سورة الرحمن بين التثنية والتكرير
قراءة مغايرة

أ.د. محمود النوبي أحمد سليمان
أستاذ الأدب العربي والنقد الأدبي
كلية الألسن – جامعة الأقصر

ملخص البحث:

يهدف البحث إلى الكشف عن أسرار ظاهرتي التثنية والتكرير في سورة الرحمن، فالتثنية والتكرير من العناصر البنائية الظاهرة في السورة، وتعبيرات القرآن الكريم دقيقة مقصودة، فكل لفظة، وكل عبارة فيه لها موضعها ودلالتها، وكل اقتران لفظة بلفظة أو اقتران لفظة بمرادف لها مقصود، وكل تكرير مقصود قصداً. تهدف هذه الدراسة إلى البحث عن بنيات التثنية ودلالتها وظاهرة التكرير ومستوياته، والدور المحوري للظاهرتين في انسجام النص وترابط أجزائه.

الكلمات المفتاحيَّة: الرحمن – التثنية – التكرير/ التكرار

Abstract:

The research aims to uncover the secrets of the phenomena of repetition and duplication in Surat Al-Rahman. Repetition and duplication are structural elements that appear in the Surah, and the expressions of the Quran are precise and intentional. Each word and phrase in it has its place and significance, and each coupling of a word with another word or its synonym is intended, and each repetition is deliberate. This study aims to investigate the structures of repetition and their significance, the phenomenon of duplication and its levels, and the pivotal role of these phenomena in the coherence and interconnectedness of the text.

تقديم:

(أ)

سورة الرحمن معجزة في بنيتها وعباراتها وتكريرها، فقد أنصت إليها الجن عندما تلاها عليهم رسول الله ﷺ (إن صح الخبر)، وخشي من ترديدها سادة قريش فأسكتوا ابن مسعود عندما بدأ في تلاوتها أمام الناس[1]، وقد أعجبتْ بنيتها العرب أصحاب الفطرة والبيان، فلم يعترض على ما فيها من تكرير أحد منهم قط، بل أُبلسوا وشعروا بالعجز، عجز الإتيان بمثلها، والأكبر من ذلك دخول بعضهم في الإسلام بعد سماعها من النبي ﷺ، فقد "روي أن قيس بن عاصم المنقري قال للنبي ﷺ: اتل عليّ مما أُنزل عليك، فقرأ عليه سورة (الرحمن) فقال: أعدها، فأعادها ثلاثاً، فقال: والله إنّ له لطلاوة، وإن عليه لحلاوة، وأسفله لمغدق، وأعلاه مثمر، وما يقول هذا بشر، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله"[2].

(ب)

لم يفاجئ القرآن الكريم العرب بلغة جديدة وأساليب غريبة، وإنما خاطبهم بجنس ما برعوا فيه، فجسَّد لهم لغتهم في أزهى حُللها، وأبهى ثيابها، فسحرهم ببراعته وإعجازه، ومما ورد في الشعر الجاهلي قائماً على نوع من تكرير العبارة كما هي، أبيات من قصيدة للمهلهل بن ربيع، منها[3]:

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ ... إِذَا خَافَ الْمُغَارُ مِنَ الْمُغِيرِ

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ ... إِذَا طُرِدَ اليَتِيمُ عَنِ الْجَزُورِ

[1] "روى هشام بن عروة عن أبيه قال : أول من جهر بالقرآن بمكة بعد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عبدالله بن مسعود، وذلك أن أصحاب رسول الله اجتمعوا فقالوا: ما سمعت قريش القرآن يُجهر به، فمن رجل يسمعهم؟ فقال ابن مسعود: أنا، فقالوا: إنّا نخشى عليك منهم، وإنّما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه، فقال: دعوني فإنّ الله سيمنعني، ثم قام عند المقام فقال: بسم الله الرَّحْمن الرحيم ، الرَّحْمن علم القرآن، رافعاً بها صوته، وقريش في أنديتها فتأمّلوا وقالوا: ما يقول ابن أُم عبد؟ ثم قاموا إليه فجعلوا يضربونه وهو يقرأ حتى يبلغ منها ما شاء، ثم انصرف إلى أصحابه، وقد أثّروا في وجهه، فقالوا : هذا الذي خشينا عليك". الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: 427هـ)، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي، (بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، سنة 1422، هـ – 2002 م) ج9 ص176

[2] القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، (مصر، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، سنة 1384هـ – 1964م) ج17 ص151

[3] مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح وتقديم: طلال حرب (الدار العالمية دت) ص39: 42

عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ إذا ما ضيمَ جارُ المستجيرِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ إذا ضاقتْ رحيباتُ الصدورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ إِذَا خَافَ المَخُوفُ مِنَ الثُّغُورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ إذا طَالَتْ مُقَاسَاةُ الأُمُورِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُ الزَّمْهَرِيرِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ إِذَا وَثَبَ المُثَارُ عَلَى المُثِيرِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ ذَا عَجَزَ الغَنِيُّ عَنِ الْفَقِيرِ
عَلَى أَنْ لَيْسَ عَدْلاً مِنْ كُلَيْبٍ إِذَا هَتَفَ المُثُوبُ بِالْعَشِيرِ

تسائلني أميمة، عنْ أبيها...

وهي قصيدة طويلة... فاللهم علمنا القرآن وافتح علينا من عندك لنفهمه وندرك معانيه ومقاصده ودلالاته؛ لنفيد منه ونعلمه وتطمئن قلوبنا به يا رب العالمين.

سبب اختيار الموضوع:

في مراحل دراستي الأولى للغة العربية وبلاغتها دخل في نفسي شيء ما عن التكرير ومنه - نتيجة لما تعلمناه في مبادئ البلاغة - ثم رأيته في سورة الرحمن وكانت نفسي في استجابة لرفضه والنفور منه (أعني التكرير أو التكرار) حتى ألهمني الله تعالى فوقعت على كتاب للدكتور السيد إبراهيم[1]، عنوانه (الأسلوبية والظاهرة الشعرية مدخل إلى البحث في ضرورة الشعر) كان الكتاب بحثاً في الضرورة الشعرية، إلا أنه تطرق في فصل منه للحديث عن سورة الرحمن، فالدكتور السيد إبراهيم يحفظ كتاب الله تعالى، وهو من الأساتذة النقاد أصحاب القدم واليد العليا في العربية ودراساتها النقدية، كانت قراءتي للكتاب فاتحة خير لفهم جديد للتكرير، ولجمال اللغة وإعجازها في سورة الرحمن، وبه بدأت في توسيع القراءة عن التكرير وتفسيرات السابقين لما ورد في سورة الرحمن، فتكشفت لي الحقيقة بأن سورة الرحمن هي حقاً عروس القرآن بما تتزين به من آيات ومعان وتكرير رائع لم يرد في غيرها من سور القرآن الكريم.

منهج البحث:

وقد اعتمدتُ في دراستي هذه على منهج وصفي خاص ومنهجية تكاملية عامة، كمحاولة للانفتاح على المناهج النقدية التي تعيد الاعتبار للنص المقروء، وللقارئ كطرف ثالث قادر على تلقي النص وتأويله بحسب

[1] السيد إبراهيم محمد، أستاذ النقد الأدبي الحديث، كلية الآداب، جامعة بني سويف.

قدراته ومستويات فهمه، ولأن سورة الرحمن نص إلهي مُقدَّس ارتبطت قراءته بالقرآن الكريم وعلومه، وأحاديث النبي ﷺ ورؤية المتلقين السابقين للنص، مع عدم إغفال التراث اللغوي والثقافي؛ ذلك كله للحد من سطوة الحداثة واعتباطية التأويل.

(أ)

سورة الرحمن خطاب إلهي من الرحمن إلى عباده من الجن والإنس، جاءت سورة الرحمن بعد (سورة القمر) وقد خُتمت سورة القمر بقوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ(54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ(55)} ثم بدأت سورة الرحمن بقوله تعالى: {الرَّحْمَنُ(1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ(3)... } فلو أتبَعَ القارئ القراءة من آخر سورة القمر واستمر في قراءة سورة الرحمن لتبين له أن المليك المقتدر هو الرحمن سبحانه، وأن هذه الصفة الأخيرة لله تعالى في آخر سورة القمر(المليك المقتدر) متناسبة تماماً مع ما جاء بعدها (الرَّحْمَنُ) ومع كل ما ورد في سورة الرحمن من دلائل القدرة والعطاء من المليك المقتدر/ الرَّحْمَن سبحانه وتعالى، ثم تُختتم سورة الرحمن بقوله تعالى: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(78)} فهو سبحانه المليك المقتدر، وهو الرحمن، وهو ذو الجلال والإكرام، وقد عبرت آيات السورة عن مُلكه سبحانه، وعن قدرته في تصريف المُلك، وعن رحمته مع عباده وفضله عليهم، وعن جلاله وكرمه سبحانه وتعالى، لتُحاط السورة بهذا التاج المرصّع الذي لم تُحط به سورة غيرها لتُسمى بعروس القرآن[1].

فسورة الرحمن متواخية مع سورة الواقعة التي جاءت بعدها – كما يقول الألوسي – ففي "كل منهما وصف القيامة والجنة والنار، ... أنه تضمن العذاب للمجرمين والنعيم للمؤمنين، وفَاضَلَ سبحانه بين جنتي بعض المؤمنين وجنتي بعض آخر منهم فانقسم المكلفون بذلك إلى: كافر، ومؤمن فاضل، ومؤمن مفضول، وعلى هذا جاء ابتداء هذه السورة [الواقعة] من كونهم أصحاب ميمنة وأصحاب مشأمة وسابقين، وقال بعض الأجلة انظر إلى اتصال قوله تعالى: إذا وَقَعَتِ الْواقِعَةُ (الواقعة:1) بقوله سبحانه: فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ (الرحمن: 37)، وأنه اقتصر في الرحمن على ذكر انشقاق السماء، وفي الواقعة على ذكر رج الأرض فكأن السورتين لتلازمهما واتحادهما سورة واحدة ... وقد عكس الترتيب فذكر في أول هذه ما في آخر تلك وفي آخر هذه ما في أول تلك فافتتح في سورة الرحمن بذكر القرآن، ثم ذكر الشمس والقمر، ثم ذكر النبات، ثم خلق الإنسان والجان، ثم صفة يوم القيامة، ثم صفة النار، ثم صفة الجنة، وهذه [الواقعة] ابتداؤها بذكر

[1] "عن علي رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: لكل شيء عروس وعروس القرآن الرحمن"، البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة 1410هـ) ج2 ص489

القيامة، ثم صفة الجنة، ثم صفة النار ثم خلق الإنسان، ثم النبات، ثم الماء، ثم النار، ثم ذكرت النجوم ولم تذكر في الرحمن كما لم يذكر هنا الشمس والقمر، ثم ذكر الميزان فكانت هذه كالمقابلة لتلك وكالمتضمنة لرد العجز على الصدر"[1].

(ب)

(الرَّحْمَن) لم تُفتتح سورة غيرها من سور القرآن الكريم باسمٍ من أسماء الله تعالى ولم يتقدمه غيره، واسم الله تعالى (الرَّحْمَن) اسم جديد لم تعرفه العرب قبل الإسلام، قال تعالى حكاية عن المشركين: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ... }[2]، فاسم الرحمن يحمل دلالات واسعة؛ فهو أكثر أسماء الله تعالى مناسبة لأن تبدأ به السورة، فالرحمن كما جاء في معجم لسان العرب: "معناه عند أهل اللغة ذو الرحمة التي لا غاية بعدها في الرحمة، لأن فَعلان بناء من أبنية المبالغة... قال الأزهري ولا يجوز أن يقال رَحمن إلا لله عز وجل، وفَعلان من أبنية ما يُبالغ في وصفه، فالرحمن الذي وسعتْ رحمته كل شيء، فلا يجوز أن يقال رحمن لغير الله"[3] ومما أُختص به هذا الاسم العظيم أنه لم يُسمع من العرب ولم يَرد في القرآن الكريم إلا مقروناً (بال) أو منادى بأداة نداء محذوفة[4]، وهذا ربما يدل على اختصاصه بالله تعالى وتخصيصه له سبحانه[5]، ولهذا في استنكاره سبحانه على قول القائلين بأن لله تعالى اتخذ ولداً استخدمت الآيات اسم الله تعالى (الرحمن) دون غيره من أسمائه سبحانه، فقال سبحانه في سورة مريم: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا(94) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ

[1] الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، (بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة 1415 هـ) ج14 ص128

[2] الفرقان، الآية60

[3] ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب، (بيروت، لبنان: دار صادر، الطبعة الأولى). مادة (رح م)

[4] ذلك في قول جرير يهجو الأخطل:

هل تتركنّ إلى القسين هجرتكم *** ومسحهم صُلبهم رحمان قربانا

فرحمان في البيت اسم منادى بأداة نداء محذوفة، وتقدير الكلام: يا رحمان قرباناً.

[5] انظر: البندري بنت عبد العزيز العجلان، الأسماء المختومة بألف ونون زائدتين لغير إعراب في القرآن الكريم دراسة تصريفية (مصر، مجلة كلية الآداب جامعة حلوان، ع26 يوليو 2009م) ص34

الرَّحْمَنُ وُدًّا(96)} فالرحمن اسم مختص بالله تعالى لا يوصف به غيره، في حين أنه يمكن أن يقال فلان رحيم، ولا يُقال أبداً بأن فلاناً رحمن؛ لأنه كما قالوا اسم اختص به الله تعالى وحده، وهذا مناسب تماماً للمعنى الذي تشتمل عليه السورة (سورة الرحمن) فالسورة كما سيتضح تتحدث عن الإنس والجن، وتتناول فضل الله تعالى ورحمته بعباده، وتتحدث عن الدنيا والآخرة، وتصف فضل الله وجناته المُعدَّة للمؤمنين، وهذا كله لا يفعله إلا الرحمن سبحانه وتعالى، بكل ما تعنيه الكلمة من تخصيص ومبالغة في الرحمة والخصوصية الإلهية.

وقالوا إن المبالغة في اسم (الرحمن) مستفادة من زيادة الألف والنون في آخر الاسم؛ إذ جعلته مشبهاً للمثنى، فكما أن غضبان حامل لضعفي الغضب، فكذلك رحمان، ولشَبَهه بالمثنى لم يجمع جمع مذكر سالم، كما أن قولهم أن الاسم من أبنية المبالغة ليس معناه أنه من صيغ المبالغة المعروفة، وإنما معناه أن زيادة الألف والنون أعطته مبالغة في إفادة معنى الرحمة[1]، ومن يتدبر هذا الكلام، ثم يتابع قراءة الدراسة؛ يتبين له أن سورة الرحمن جميعها أو أكثر آياتها سوف تنقاد وراء هذا الاسم العظيم، لتنتهي آيات السورة أو أكثرها بالألف والنون، سواء كانتا(الألف والنون) في أصل الكلمة أو أنهما دلالة على التثنية، لتكون زيادة الألف والنون المشبهة للاسم بالمثنى هي مفتاح السورة، فقد بُنيت السورة كلها على دلالة التثنية كما سيتضح في الصفحات التالية.

ومن لطائف السورة أنها رغم قيامها على فضل الرحمن ومَنِّه ورحمته سبحانه، حتى أننا وجدنا الآيات التي جاءت في بنية الجملة الفعلية بعد اسم الله الرحمن، جاء الفاعل فيها مستتراً، ليعود على الرحمن سبحانه؛ ليكون كل الفعل فعله، وكل العطاء عطاءه سبحانه، انظر معي إلى الآيات: {عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ(3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4) ... وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(7) ... وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ(10)} فالضمير بعد كل فعل جاء مستتراً عائداً في دلالته على اسم الرحمن في الآية الأولى، فمن الذي علم القرآن؟ ومن الذي خلق الإنسان؟ ومن الذي علم الإنسان البيان؟ ومن الذي رفع السماء ووضع الميزان؟ ومن الذي وضع الأرض للأنام؟ الإجابة كلها أن الفاعل هو الرحمن سبحانه وتعالى.

ومما يلاحظه المتدبر إن أول نعمة قدمها الرحمن تعالى في السورة على غيرها من النعم هي نعمة القرآن، وتعليمه للإنس والجن، وإسناد تعليم القرآن إلى اسمه تعالى " الرَّحْمَن " فيه إيذان بأن تعليم القرآن من آثار رحمته الواسعة سبحانه، وأنه من أفضل النعم وأهمها، ثم تأتي بعدها نعمة الخلق والوجود للإنسان،

[1] انظر: السابق نفسه ص33

متعلقة بالرحمن الذي علّم الإنسان بفضله ورحمته البيان دون مخلوقاته، فعلمه البيان مخصوصة للإنسان بعد خلقه، ألم يعلِّم الله تعالى أبانا آدم عليه السلام الأسماء كلها بعد خلقه كما جاء في سورة البقرة {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا... }[1].

ومن جماليات سورة الرحمن أنك إذا تأملت الآيات السابقة تلحظ فيها أن الفاعل مستتر، أو ضمير عائد على الرحمن سبحانه - كما جاءت الإشارة إلى ذلك في السطور السابقة - لكن لمّا تطرَّقت الآيات إلى نعم الله تعالى وفضله المادي على الثقلين(الإنس والجن) جاء لفظ (ربّ)، ليناسب ربوبية العطاء والرعاية والتدبير، فهو القائم على أمرهم والمنعم عليهم، انظر معي إلى بقية آيات السورة: {وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ(12) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(13)... إلى آخرها} ومما يلاحظه المتدبر أنه على الرغم من أن ذلك العطاء المادي هو عطاء رب كريم، إلا أن ذلك العطاء وتلك الربوبية متعلقة بالرحمن سبحانه وتعالى، فهو رب رحيم، إذ كان العطاء شاملاً الثقلين، شاملاً لجميعهم الكافر منهم والمؤمن، والدليل على ذلك أن حديث الفضل والعطاء موجه إليهم وحالهم التكذيب والإنكار، لذا كان خطابهم {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} وقد أحدث ذلك ترابطاً خاصاً بين آيات السورة من أولها إلى آخر آياتها، وهنا يمكن أن نقول: إن لآيات السورة تعلقين: أحدهما رأسي تقتضيه ترابطات السورة مع اسم الله تعالى الرحمن، والآخر أفقي تقتضيه منطقية التركيب والتتابع بين الجمل المتوالية، ذلك الترابط الشامل هو الذي صنع في السورة وحدة الموضوع ووحدة البنية الثنائية المهيمنة.

- 2

(أ)

وفي هندسة البنية التي قامت عليها سورة الرحمن إعجاز بنائي وموسيقي ودلالي عظيم إلى أعظم الحدود، فلو نظر المتأمل إلى آيات السورة فسوف يجدها متناسقة هندسياً في بنيتها بصورة فريدة، ومن ذلك ما سوف يرد في البحث تباعاً، ومنه ما نجده ظاهراً في آيات السورة الأولى، فمما يلاحظه المدقق في آيات السورة الأولى ما بُنيت عليه من تدرج صوتي وتدرج حتى في عدد كلمات الآيات، فالآية الأولى من السورة {الرَّحْمَنُ} قد بُنيت على كلمة واحدة، ثم جاءت بعدها ثلاث آيات مبنية على كلمتين {عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4)} وبعد ذلك مباشرة جاءت آيتان مبنيتان على على ثلاث كلمات {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ(6)} ثم آيتان من أربع كلمات {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي

[1] سورة البقرة ، الآية31

الْمِيزَانِ(8)} ثم أعقبتها آية من ست كلمات {وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ(9)}، ولو تدبرت هذه الآيات نفسها لرأيت فيها توزيعاً فريداً للجمل ما بين الاسمية والفعلية، فبعد الآية الأولى {الرَّحْمَنُ} نجد ثلاث جمل فعلية متتالية {عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4)}، وبعدها مباشرة ثلاث جمل إسمية متتالية، {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ(6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) }، فهذا التدرج القرآني الرائع في البنية أسهم دلالياً في إقامة تدرجات المعنى السياقي للنعم الموزعة في السورة، كما أسهم في إقامة نوع من التصعيد النغمي الذي بدأته السورة بهدوء مع الرحمن إلى أن وصلت إلى التوبيخ والإنكار على الثقلين لجحودهم وإنكارهم لنعم الله الكثيرة، ولو رجعت البصر كرة أخرى في بقية آيات السورة ربما يتكشف لك إعجاز آخر غير الذي تكشف لي.

وفي السورة جاءت الآية {فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} لأول مرة (الآية 13) موجهة إلى الإنس والجن (تكذبان) وذلك قبل ذكر الجن في السورة، فالذي ذكر قبل ورود آية الآلاء الأولى هم الإنس وحدهم دون الجن، انظر إلى الآيات في أول السورة: {الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (6) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (12) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (13) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15)} فقد جاء الحديث عن خلق الجان في الآية (رقم15) بعد ورود آية الآلاء الأولى رقم(13)، وقد كان للمفسرين واللغويين رأي في ذلك، فجاء في لسان العرب، أن الأنام هم الإنس والجن، وعليه يكون ذكر آية الآلاء الأولى جاء بعد ذكر الإنس والجن معاً، وحتى إن كانت كلمة الأنام تعني الإنس فقط، فقد كانت العرب تقدم وتؤخر في حديثها. انظر إلى ما جاء في لسان العرب عن هذا الأمر وشواهده: "وقيل جاز مُخاطَبَةُ الثَّقَلَيْن قبل ذِكْرِهما معاً لأنهما ذُكرا بِعَقِب الخِطاب قال المُثَقِّب العَبْدي:

فما أَدْرِي إذا يَمَّمْتُ أَرْضاً *** أُرِيدُ الخَيْرَ أَيُّهما يَلِيني؟

أَأَلخَيْر الذي أنا أَبْتَغيهِ *** أمِ الشَّر الذي هو يَبْتَغِيني؟

فقال أَيُهما ولم يَجْر للشرّ ذكر إلا بعد تَمام البيت"[1]، فذلك يؤكد أن العرب كانت تتحدث عن مُؤخر في كلامها، والقرآن عربي جاء على ما يتحدثون به.

[1] ابن منظور، لسان العرب، مادة (أ ن م)

(ب) والآية اللازمة الإيقاعية والدلالية {فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} خطاب توبيخ وإنكار موجه للإنس والجن، توبيخ لإنكار نعمة سابقة، فأول ورود لهذا للآية جاء بعد تمهيد امتد لاثنتي عشرة آية متحدة الفواصل تقرر العقيدة، وتثبت النعم، وتعرف بالمنعم سبحانه وتعالى، وإن كان في تكرير الآية عرض لنعمة سابقة ففيه أيضاً تمهيد لنعمة جديدة لاحقة من نعم الله التي لا تنتهي، ودليل على تنوع نعمه سبحانه وكثرتها، بمعنى إن ذلك التكرير إبراز لنعم عظيمة من المنعم تعالى، وتكريره يؤكد تنوعها لاختلاف ما تقر به كل آية. وبتفحص كلمات آية الآلاء نجدها تبدأ بالفاء الدالة على التفريع على ما تقدم من المنن المدمجة[1] التي وهبها الله تعالى لعبادة من الإنس والجن، ويسمونها أيضاً بالفاء "الفصيحة؛ لأنّها أفصحت عن جواب شرط مقدر تقديره: إذا عرفتم ما ذكرته لكم من النعم، وأردتم تذكيركم وتنبيهكم فأقول لكم: بأيّ آلاء ربكما"[2] تكذبان، لتكرر نعم الله تعالى في السورة محيطة بتكذيب المكذبين، فكلما ذكرت لفظة تكذبان مكرورة في الآية كانت مسبوقة بنعمة من نعم الله تعالى، وبعدها نعمة أخرى من نعمه سبحانة، إلى أن تختتم السورة بقوله تعالى: {تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} فهو ذو الجلال والإكرام سبحانه، لا حاجة له بتصديقهم أو تكذيبهم، ومن ثم كانت هذه الآية اللازمة بمثابة الانطلاقة البنائية للآيتين السابقة واللاحقة لها، فالنعم هي محور السورة من بداية خلق الإنسان وتعليمه البيان إلى آخر ما أعدّه الله له من فضل وجنان، وهذا يعني أن النظام البنائي الترابطي في السورة قام على التكرار النسقي لآية الآلاء، لتتحول هذه الآية إلى بؤرة دلالية تجمع من حولها النعم الواردة في النص، ومواقف الثقلين غير المتكافئة معها، "وأما الحكمة في تكرار قوله: {فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} فقال القتيبي: إنَّ الله تعالى عدَّد في هذِه السورة نعماءه، وذكَّر خلقه ألاءه، ثم أتبع ذكر كل خلَّة وصفها ونعمة وصفها بهذِه الآية، وجعلها فاصلة بين كل نعمتَيْن لينبههم على النعم، ويقررهم بها، وهو كقولك لرجل أحسنت إليه، وتابعت عليه بالأيادي وهو في ذلك ينكرك ويكفرك: ألم تكن فقيرًا فأغنيتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن عريانًا فكسوتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم أحملك وأنت راجل؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن خاملًا

[1] الطاهر بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ)، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» (تونس، الدار التونسية للنشر، سنة 1984 هـ) ج27 ص243

[2] الهرري، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، مراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي (بيروت – لبنان، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، سنة 1421 هـ – 2001 م) ج28 ص299: 300

فعززتك؟ أفتنكر هذا؟ ألم تكن صرورة[1] فحججت بك؟ أفتنكر هذا؟ والتكرار سائغ في كلام العرب، حسنٌ في مثل هذا الموضع..."[2].

وفي بنية السورة مع تكرير آية الآلاء بنية حجاجية قوية ترغم من له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد؛ فلما حُشدت نعم الله وفضله في سورة الرحمن حشداً متراكباً، اقتضى ذلك أن تخضع تلك النعم لنظام من التسلسل في عرضها، فجاء عرض السورة للنعم مؤسساً مع نظام السورة الخاص، وهو القيام على الثنائية التي تشير إليها الدراسة، ولم يبتعد هذا المنطق كثيراً عن منطق السلم الحجاجي الذي توافق عليه الدراسون في تحليل الخطاب، ففي السلم الحجاجي لابد أن تكون الحجة اللاحقة أقوى من الحجج التي قبلها تصاعداً، بمعنى لو توالت مجموعة من الحجج في نص واحد وكانت الحجة الأولى هي (1) فلا بد أن تكون الحجة (2) أقوى منها، وكذلك تكون الحجة (3) أكثر قوة من الحجتين السابقتين (1 و 2) وهكذا نحو الصعود، وفي عرض السورة لحججها لبيان آلاء الله تعالى وفضله على العباد بدأت بما هو مادي دنيوي، في قسمها الأول، ثم تصاعدت الحجج لتشمل القسم الثاني المتعلق بالآخرة وما فيها من جنة ونار، ليكون الحجاج تصاعدياً ومتوافقاً مع ثنائية الدلالة الموزعة في السورة الكريمة، وقد خضعت الحجج القرآنية في السورة لنظام من التعالق تمثل في مستويين – على حد تقسيم أحد الباحثين[3] – مستوى التعالق التتابعي، وهذا نجده في التتابع التسلسلي للحجج؛ فأول ما بدأت آيات الآلاء في السورة الكريمة كانت إشاراتها إلى كل ما قبلها من تعليم القرآن وخلق الإنسان وتعلميه البيان، ونعمه الموزعة في السماوات والأرض، ثم جاء الحديث عن خلق الإنس والجان لتتوالى النعم، إلى أن يصل الحديث عن انشقاق السماء والآخرة لتتصاعد الأحداث نحو العقاب والثواب، ليتحقق التعالقان التتابعي والسببي بين الآيات وموضوعاتها، بذلك يتأكد أن تكرير الآية اللازمة (آية الآلاء) في السورة يحمل في طياته بنية حجاجية على عباد الله من الثقلين (الإنس والجن).

وثَمَّةَ ملامح أخرى لعملية التكرير في السورة المباركة، ومن ذلك تكرير بعض الحروف في موضع دون غيره، فحرف السين كان له سلطة تكرير في الآيات التي تحيط بعالم الإنسان وخلقة من صلصال (من الآية 3: 14) وحرف السين من أبرز الحروف المكونة لكلمة إنس أو إنسان، ولما بدأت السورة في الحديث عن الجان

[1] صرورة: أي لم يحج قط، أصله من الصر الحبس والمنع.

[2] الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، ج9 ص180

[3] خالد توفيق مزعل، الأنساق الأسلوبية المهيمنة على السورة القرآنية دراسة تطبيقية على السور المكية، رسالة دكتوراه مخطوطة (العراق، جامعة الكوفة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، سنة 1433هـ : 2012م) ص178

وخلقة ابتداء من الآية(15) تلاشت السين ليحل محلها حرف الجيم في الآيات التي تتحدث عن خلق الجان، ذلك لأن حرف الجيم من أكثر حروف الكلمة (الجن – الجان) ظهوراً وقوة في الكلمة.

-3- استدعت الآية الكريمة {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}[1] الحديث عن التثنية في سورة الرحمن، فقد فاجأت الآية علماء اللغة والمفسرين بتثنية الجنة لتصبح (جنتان) فالأول مرة ترد الجنة بصيغة التثنية في القرآن الكريم، فقد خرجت الآية على نمط التعبير القرآني الذي دأب على استعمال لفظ الجنة بغير لفظ التثنية، نعم فقد ورد لفظ الجنة بكثرة في القرآن الكريم مفرداً، وورد كثيراً بصيغة الجمع، لكنه لم يرد في وصف جنة الآخرة بصيغة التثنية إلا في سورة الرحمن[2] وذلك ما أربك المفسرين وعلماء اللغة وفاجأهم؛ فأخذ كل واحد منهم يدلي بدلوه، فمنهم من قال إنها جاءت على هذه البنية مشاكلة للتثنية في السورة، في مذهب ساووا فيه بين القرآن والشعر من هذه الجهة (جهة الضرورة الشعرية) ومنهم من قال هما جنتان فعلاً يعطيهما الله تعالى للمؤمن جنة لإيمانه وجنة لعمله، ومنهم من قال هي جنة واحدة ولكنك إذا وقفت في وسطها ونظرت إلى يمينك ترى جنة، وإذا نظرت إلى يسارك ترى جنة، فكأنهما جنتان، وفي خواطر الشيخ الشعراوي أوّلَها بأنه تعالى يتحدث في السورة عن خلق الإنس والجن، ونعمه العظيمة عليهما؛ وعليه تكون إحدى الجنتين للمؤمن من الإنس والثانية للمؤمنين من الجن... وهكذا، ولكن ما قدموه حقاً لا يفض إشكال الآية، فليس في ما قالوا ما يضمن الأسس الفكرية المقبولة لما ورد في الآية والسورة، وقد فض السيد إبراهيم إشكال الآية بفكر علمي يدعم الآية وتدعمه السورة كلها، فقال: "وعندي أنه لا يمكن فهم الآية منفصلة عن وجودها في السورة، فهي المحيط الذي نشأت فيه، ولا يتأتى عزلها عن هذا المحيط، فهي تحمل خصائص الانتماء

[1] {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}(46) قالوا إن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه" أخرج ابن أبي حاتم عن ابن شوذب في قوله {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} قال: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ في العظمة عن عطاء أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه تذكر ذات يوم وفكّر في القيامة والموازين والجنة والنار وصفوف الملائكة وطي السموات ونسف الجبال وتكوير الشمس وانتثار الكواكب فقال: وددتُ أنّي كنت خضراء من هذا الخضر تأتي عليّ بهيمة فتأكلني وأني لم أُخلق فنزلتْ هذه الآية { وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}" فخشية الله تعالى والخوف منه أعظم درجات العبادة ومُضاعف ثوابها. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي(المتوفى: 911هـ)، الدر المنثور (بيروت – دار الفكر) ج7 ص706

[2] أما قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} سبأ الآية15 فهما من جنان الدنيا وليس الآخرة.

للسورة، وعزلها عنها يقصيه عن كل معنى يضفيه هذا الانتماء"[1]، وبنظرة متأنية في سورة الرحمن يتبين للمدقق أن السورة قامت على عنصر بنائي موحد ومبدأ عام ثابت وهو مبدأ التثنية، ولم يكن مجيئه إلا قصداً؛ ليكون عنصراً محورياً فاعلاً في العناصر الأخرى ومتحكماً في بنيتها بصورة تضمن تلاحم أجزاء النص، وتحقق له الانسجام على وفق نظام بنائي ملحوظ، ليغدو بعدها ذلك النسق طابعاً أسلوبياً مهيمناً على السورة برمتها، لتأخذ شكلاً بنائياً متوافقاً مع النسق العام، أو كما قال السيد إبراهيم "إن التثنية هي القوة التي تهيمن على كل مظاهر التعبير في السورة"[2].

وللتثنية في العربية طرق ووجوه، فليس هي فقط التثنية الدارجة المعروفة في قولنا (رجلان) بالألف والنون، أو (رجلين) بالياء والنون، ولكنْ هناك مجال واسع لمعاني التثنية في الطبيعة الدلالية واللغوية عند العربي، وحتى لا نطيل في حديث نحوي؛ نقسمها تقسيماً مباشراً كما ورد في سورة الرحمن ونتفهم أنواعها الواردة في السورة نفسها على النحو الآتي:

1- **التثنية بالعطف**: فالعطف مسلك من مسالك التثنية (الشمس والقمر) وهذا المظهر من مظاهر التثنية كثير في السورة، وربما جاء معاضداً ومساندا للتثنية المعروفة لنا (التثنية بالألف والنون أو الياء والنون) انظر إلى قوله تعالى في السورة: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}(6) فقد جاءت التثنية بالعطف وجاء بعد العطف الفعل بضمير التثنية (يَسْجُدَانِ) ليدل على أن اجتماعهما بالعطف قد أوجد دلالة التثنية، وهذا الكلام لا يخالف ما ذهب إليه علماء العربية، فقد أورد عبد القادر البغدادي ما يدل على ذلك في كلام العرب في تعليقه على قول الشاعر من الرجز:

ليثٌ وليثٌ فِي محلٍّ ضنك ... كِلَاهُمَا ذُو أشرٍ ومحك

فقال: "أصل المثنى العطف بالواو فلذلك يرجع إليه الشاعر في الضرورة كما هنا فإنّ القياس أن يقول: ليثان لكنه أفردهما وعطف بالواو لضرورة الشعر. قال ابن الشجري في أماليه: التثنية والجمع المستعملان أصلهما التثنية والجمع بالعطف فقولك: جاء الرجلان ومررت بالزيدين أصله جاء الرجل والرجل، ومررت بزيد وزيد فحذفوا العاطف والمعطوف وأقاموا حرف التثنية مقامهما اختصارا، وصح ذلك لاتفاق الذاتين في التسمية بلفظ واحد. فإن اختلف لفظ الاسمين رجعوا إلى التكرير بالعاطف كقولك: جاء الرجل والفرس إذ

[1] السيد إبراهيم، الأسلوبية والظاهرة الشعرية مدخل إلى البحث في ضرورة الشعر (مصر – مركز الحضارة العربية، الطبعة العربية الرابعة، سنة 2007م) ص100

[2] السابق نفسه، ص100

كان ما فعلوه من الحذف في المتفقين يستحيل في المختلفين"[1]، ولعل هذه التثنية بالعطف لاختلاف النوع، وفي قوله تعالى: {وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ}(6) فهنا اختلاف في لفظ الاسمين، والنجم من المشترك اللفظي، إن أُريد به نجم السماء وقد عُطف على الشجر في الأرض فهذا من قبيل التعميم للإحاطة، يدل على سجود المخلوقات العلوية وممثلة في النجم، ومخلوقات الأرض ممثلة في الشجر، وإن أُريد بالنجم النبات الذي ليس له ساق، فهو تعميم للسجود على كل أجناس النبات.

وفي سورة الرحمن أكثر من آية بُنيت على التثنية بالعطف منها، قوله تعالى: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ(6)... فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ(11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ(12)... يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ(22)... يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ(29)... يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (33) ... } وهكذا أكثر آيات السورة، حتى في الإشارة عن ذاته سبحانه وتعالى في آخر آيات السورة قال: {... ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}، وربما زاد الأمر جمالاً بالعطف بين كلمتين بُنيتا على التثنية، ليجتمع في معنى الجملة ودلالتها نوع من التثنية المضاعفة، مثل قوله تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}(17) فقد كانت التثنية الأولى في بنية الكلمتين على الياء والنون، والتثنية الثانية المضاعفة جاءت نتيجة للعطف بين المثنى ونظيره.

وفي السورة أيضاً تثنية بعطف جملة على جملة، وهو غير التثنية بعطف المفردات، وذلك نجده في قوله تعالى من السورة نفسها: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(7)... وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ(9)... }، وقوله تعالى: (يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) أي من في السماوات، ومن في الأرض، وفيما سبق نجد العطف بين جملتي الآية نفسها، وقد يكون العطف بين آيتين، مثل قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15)} وقوله تعالى: {كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ(26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27)} ومنها قوله سبحانه: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) ... وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10)}، ومما نلاحظه في عطف الآيتين دائماً ما يكون هناك تقابل في المعنى بين الآيتين، وعلى الرغم من ذلك التقابل إلا أن الآية الثانية تكمل المعنى المطروح في الآية الأولى؛ فالتثنية - كما قال السيد إبراهيم- "مبدأ قابل للتكرار على صور شتى لا تستنفده الاستعمالات اللغوية وإن تعددت، ولا تنفيه صورة التعبير وإن اختلفت"[2].

[1] البغدادي، عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون (مصر – مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة، سنة 1418 هـ – 1997 م) ج7 ص461

[2] السيد إبراهيم، الأسلوبية، ص117

فالتضاد والمقابلة من مبادئ التثنية، فصيغة العطف تنطوي على تضاد بين المعطوفين في أكثر الآيات المذكورة سابقاً، بين الجن والإنس، والسماء والأرض، والليل والنهار، فهو تضاد مع العطف، ومثله كان العطف مع المقابلة - كما ذكرت في الفقرة السابقة - ومنها ما بني على المقابلة وحدها دون عطف، مثل قوله تعالى في السورة: {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ(20)} ففي الآية الأولى التقاء، وفي الثانية انفصال، فكل آية منهما تكمل معنى الأخرى، ويشهد لذلك - كما يقول السيد إبراهيم - "إنه لم يفصل بين كل آيتين بقوله: {فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} وهو الفاصل الذي دأبت عليه السورة بين آياتها، وذلك لأن كل آية من الآيتين لا تستقل بالفكرة بمعزل عن نظيرتها"[1].

ومن التثنية في سورة الرحمن ثنائية الأمر والنهي: فقد جاء الأمر ملازماً للنهي وقد عُطف كل منهما على الآخر في جمل متوالية، ففي موضعين من السورة (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (9) فالأمر محاط بنهيين (أَلَّا تَطْغَوْا // وَأَقِيمُوا // وَلَا تُخْسِرُوا) ربما لأن النهي الأول مسبوق بقوله تعالى: (... وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) فهي صيغة تتضمن معنى الأمر، فالصيغة تتضمن أمر الناس بالعدل دون استخدام فعل أمر مباشر، وعلى ذلك تكتمل الثنائية لتكون الصياغة موزعة بين (أمر (وَوَضَعَ الْمِيزَانَ) + نهي (أَلَّا تَطْغَوْا) // وأمر (وَأَقِيمُوا) + نهي (وَلَا تُخْسِرُوا) وهذا لا ينفي انحسار الأمر بين نهيين، بل وانحسار النهي بين أمرين، أحد الأمرين ضمني والآخر صريح؛ والأمر والنهي يعضد كل منهما الآخر ويؤيده ويحدده، وهي صيغ تضمنت الأمر التكليفي الوحيد في خطاب السورة[2]؛ لأن النهي والأمر متعلقان بإقامة العدل في الأرض، فالله تعالى أقام السماوات بميزان العدل، وأقام الأرض وما فيها من فاكهة وحب وغير ذلك بميزان العدل الدقيق؛ فمادامت السماوات مرفوعة وقائمة بالعدل والميزان الإلهي، ومثلها الأرض قائمة بالميزان نفسه، فكيف للإنسان الذي أسكنه الله تعالى أرضه وسخر له كل ما فيها أن يحيد على سنته في الخلق، بل يجب على سكان الأرض ومن أظلتهم السماء إقامة العدل والميزان؛ ليكتمل التوازن الكوني الذي بدأه الله تعالى بتوازن خلق السماء والأرض؛ فكان النهي والأمر منه تعالى (أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ(8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ(9)

وبالتدقيق سوف ينكشف أعجاز آخر وآخر في سورة الرحمن، ومن ذلك مثلاً الثنائيات الموزعة في السورة، فكلمة (السماء) قد وردت في موضعين، أحدهما في بدايات خلقها والثانية في علامات القيامة، قال تعالى: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ(7)} وقال تعالى: {فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ(37)}، ومثلها

[1] السابق نفسه، ص117

[2] رأفت سيد حسين، الأفعال الكلامية التوجيهية ومقاصدها في سورة الرحمن (مصر – مجلة البحث العلمي في الآداب، تصدر عن كلية البنات والعلوم والتربية، جامعة عين شمس، العدد20، ج7، سنة 2019م) ص176 – 177

(ذو/ذي الجلال والإكرام) (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27) / (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78) ، ومثلها كلمة (نخل) وردت بلفظها في موضعين من السورة، مرة في آية من آيات الدنيا (فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (11) ومرة في آية من آيات الآخرة (فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (68) وفي هذا تكريم للنخل. ومثلها كلمة (نار)، (وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) / (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ(35) ومثلها كلمة (المجرمون) (يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (41) / (هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (43)، ومثلها كلمة (جنتان) بالرفع (وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ(46) / (وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ(62) ، ومثلها (عينان) (فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (50) / (فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (66)، ومثلها كلمة (الإحسان) في آية واحدة (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (60)، أما كلمة (الإنسان) فقد وردت بلفظها في موضعين (خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) / (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14)، وفي موضع ثالث جاءت بلفظ (الإنس) (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ ...) (33)، وفي موضع رابع جاءت لفظة (الأنام) (وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (10) إذا أخذنا بالرأي القائل بأنها تعنى الإنس وحدهم دون الجن؛ وإن كان ذلك كذلك فهناك تثنية أو ازدواج آخر بين لفظي (الإنس والأنام)، أما (الجان والجن) فقد وردت في موضع بلفظ (الجن) (يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) (33) وفي موضع آخر بلفظ (الجان) (وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15) ، و(البحر مع البحرين) (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (19) / (وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (24) وكذلك (المرجان) (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (22) / (كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (58) ومثل ذلك لفظة (متكئين) (مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (54) / (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (76) ومثل ذلك كلمة (حِسَان) (فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (70) / (مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (76)، وغير ذلك مما لم تصل إليه رؤيتي في السورة الكريمة، كله من الثنائيات المقننة، ومن يدقق في آيات السورة يتكشف له إعجاز وإعجاز.

واللافت للنظر أن هذه البنية الثنائية المشار إليها سابقاً في سورة الرحمن ورد مثلها في آية الكرسي[1]، وآية الكرسي هي أعظم آية في القرآن الكريم، ففي لقاء مصور مع فاضل السامرائي أشار إلى أن آية الكرسي بدأت بقوله تعالى (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) وهذه الجملة قد وردت مرتين بنصها في القرآن الكريم، في آية الكرسي من سورة البقرة، وفي الآية الأولى من آل عمران. ومما ورد في آخر آية الكرسي وصف الله تعالى بـ (الْعَلِيُّ

[1] (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) سورة البقرة، الآية255

الْعَظِيمُ) وهذه الصيغة وردت أيضاً مرتين فقط في القرآن الكريم، الأولى في آية الكرسي والثانية في الآية الرابعة من سورة الشورى (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ).

أما التكرير في آية الكرسي فمنه أن الآية بدأت بصفتين من صفات الله (الْحَيُّ الْقَيُّومُ) ثم ذكرت اثنين من درجات النوم (لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ) وفيها كرر (لا) مرتين، ثم ذكر اثنين من مُلْكه (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ) وفيها كرر (مَا فِي) مرتين، ثم كرر اثنين من علمه (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) وكرر فيها (ما) مرتين أيضاً، وذكر اثنين مما وسعه الكرسي (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) وختم الآية بصفتين من صفاته سبحانه (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

وتعبيرات القرآن الكريم دقيقة مقصودة، فكل لفظة، وكل عبارة فيه لها موضعها ودلالتها، وكل اقتران لفظة بلفظة أو بمرادف لها مقصود، وكل تكرير مقصود قصداً.

2- **التثنية الدارجة**: التثنية بالألف والنون أو الياء والنون، فمما ورد في السورة من كلمات مثناة بالألف والنون أو بالياء والنون قوله تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}(17)... {مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ}(19) {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ}(31)[1] ...{وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ}(46) {ذَوَاتَا أَفْنَانٍ}(48) {فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ}(50) {فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ}(52) {... وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ}(54) {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ}(62) {مُدْهَامَّتَانِ}(64) {فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ}(66) أما إذا نظرنا إلى الأفعال التي التحقت بها ألف الاثنين فكثيرة جداً في السورة، انظر معي فقط إلى الآيات المذكورة

[1] هذه الآية الأخيرة مرعبة {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ} فالله تعالى يتوعد الجن والإنس بأنه سيفرغ لهم يوماً ويكشف لهم وجوه الحقيقة، وهذا التعبير متداول عندنا في قرى الصعيد، عندما يهدد أحدهم الآخر بأنه يتركه الآن ولكنْ سيفرغ له في يوم من الأيام ويؤدبه، ولهذا يقول سيد قطب في كتابه ظلال القرآن ضمن تفسيره للآية الكريمة: "والله – سبحانه – ليس مشغولاً فيفرغ وإنما هو تقريب الأمر للتصور البشري وإيقاع الوعيد في صورة مذهلة مزلزلة تسحق الكيان بمجرد تصورها سحقاً، فهذا الوجود كله نشأ بكلمة . كلمة واحدة . كن فيكون. وتدميره أو سحقه لا يحتاج إلا واحدة كلمح بالبصر، فكيف يكون حال الثقلين، والله يفرغ لهما وحدهما، ليتولاهما بالانتقام؟!"، وقريب من ذلك قوله تعالى من سورة المزمل: {وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ...}، ولمست هذا أيضاً في قول الله تعالى في سورة المدثر: {ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا}(11) فمعنى الآيتين نفسه نستخدمه في بلادنا عندما يتمكن أحدنا من خصمه، فإذا أراد أحدهم التدخل قال له صاحب الحق القوي، ما معناه: (اتركني أنا وهو الآن ولا يتدخل أحد بيننا) وقصده من ذلك تأديبه وإرجاعه إلى الحق، ولله وكتابه المثل الأعلى والأعظم، لكنها وسيلة توضيح، فالننظر إلى دلالات الآيات مقترنة بالدلالات التي في نفوسنا ليتأكد لنا مشقة يوم القيامة للعصاة خاصة، وكذلك مشقة وقوف الكفرة والعصاة أمام الله تعالى يوم القيامة، ولكن كما قال سيد قطب: "وما يزال قوله تعالى: {سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ} أعنف وأقوى وأرعب وأدهى" ، فله المثل الأعلى والأعظم سبحانه وتعالى. انظر: سيد قطب، في ظلال القرآن (كتاب إلكتروني – المكتبة الشاملة) ج7ص13

سابقاً ففيها الفعلان: (يَلْتَقِيَانِ – تَجْرِيَانِ) ولم أبحث عن غيرهما في السورة حتى لا أطيل في ذكر الأمثلة، ولكن يكفي تكرير الفعل (تُكذِّبان) في اللازمة: {فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} (31 مرة).

- 4

ومن وجوه التثنية التي تفرد بها القرآن الكريم وربما تفردتْ بها سورة الرحمن دون غيرها، ما يمكن تسميته بثنائية التصوير، وهو نوع يتأتى للقارئ المدقق إذا نظر إلى السورة/النص بأكمله، لتتكشف له قائمة من الإحالات المضمونية التي بها يتمكن من رؤية البنية الدلالية القائمة على الثنائية الكلية لبنية السورة ودلالاتها، وهذا نجده على ثلاثة وجوه:

الوجه الأول: في ما دلت عليه الآيات من عموم التثنية في الإنسان والكون بإلحاح على فكرة الميزان – كما قال السيد إبراهيم- وذلك في قوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (7) أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ(9)}

فكلمة الميزان بمعناها الأوسع والأشمل تمسك بمحور السورة ومفاصيلها، فالميزان بكفتيه رمز العدل، "والميزان هنا هو الثنائية المنبثة في شتى حقائق الأشياء، وهو المبدأ الذي يستقيم عليه أصل الوجود، وعليه قامت فلسفة البعث باعتباره مبدأ لا ينكسر، وانكسار هذا المبدأ لا يرادفه إلا فساد الكون وبطلانه، ولذلك قال تعالى: {أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ(8)}"[1]، وهذا يمكن أن نسميه إحالة إشارية صُغرى، بأن النص يستخدم صورة الميزان بكفتيه ليحيل به على الصورة الكلية للنص لتندمج الصورتان في دلالة رمزية واحدة وتؤدي نتيجة واحدة، وعلى الرغم من ورود كلمة (الميزان) في الآيات الأولى من السورة (7 – 8 – 9) إلا أن دلالتها امتدت إلى بنية السورة كلها، فجاءت سورة الرحمن موزعة على نسق دقيق في بنيتها[2] القائمة على الثنائية. علماً بأن الميزان في السورة ثلاثة موازين، وورودها أكثر من مرة ليس من باب تكرار المعنى وإن كان فيه تكرار للفظ.

الوجه الثاني: في تكرير صورة الجنتين، لتأتي الصورة الأولى لهما بداية من الآية(46) حتى الآية (58) ، والصورة الثانية بداية من الآية (62) حتى الآية (76)، انظر معي إلى الآيات:

الصورة الأولى: من الآية(46) حتى الآية (58) بعد حذف قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} من بين الآيات، حتى تتضح الفكرة.	الصورة الثانية: بداية من الآية(62) حتى الآية (76) بعد حذف قوله تعالى:{فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ}من بين الآيات، حتى تتضح

[1] السيد إبراهيم، الأسلوبية، ص118

[2] انظر. رأفت سيد حسين، الأفعال الكلامية التوجيهية ومقاصدها في سورة الرحمن ص177

	الفكرة.
صورة الجنتين/1 عامة: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ . ذَوَاتَا أَفْنَانٍ . فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ . فِيهِمَا مِنْ كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ .	صورة الجنتين/2 عامة: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ . مُدْهَامَّتَانِ . فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ . فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ . فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ .
صورة المتكأ: مُتَّكِئِينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ.	صورة المتكأ: مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ.
صورة الحور العين: فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ . كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ.	صورة الحور العين: حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ . لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ.
هنا تقدمت صورة المتكأ وتأخرت صورة الحور العين. ويبدو أن تقديم المتكأ جاء للقرب الدلالي بينه وبين الفاكهة، فقد جاء الحديث عن الفاكهة في الآية السابقة لها، ثم جاءت آية المتكأ لتقول أن الفاكهة قريبة منهم يقتطفون منها يحيث شاؤوا وهم متكئون.	هنا تقدمت صورة الحور العين وتأخرت صورة المتكأ. وقد وضعت الصور في ترتيب واحد لتوافق الجدول التوضيحي. وأظن أن تقديم الحور هنا لأنهن علامة الجمال الأولى على تلك الفرش، وخصوصاً مع عدم توافر دنو الفاكهة منهم وهم على فرشهم.

يبدو أنهما أربعة جنان: جنتان، ثم جنتان من دونهما... وملازمة لمبدأ التثنية، لو كان لكل جنة بابان، لكان هو نفسه عدد أبواب الجنة الذي ورد في الحديث "...عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: فِي الْجَنَّةِ ثَمَانِيَةُ أَبْوَابٍ فِيهَا بَابٌ يُسَمَّى الرَّيَّانَ لَا يَدْخُلُهُ إِلَّا الصَّائِمُونَ"[1]

فقد أعادت الآيات ذكر الصورة بعناصرها: الجنتين والعينين والفاكهة والحور العين، والمتكأ، وكما ذهب المفسرون وكما يبدو من سياق الآيات أن الصورة الثانية للجنتين هي صورة دون الأولى وأقل منها، وذلك ما قالته الآيات {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} فهما دون الجنتين اللتين ذُكرتا أولاً، ويؤيد ذلك ما جاء في وصف تلك الجنان، فقد جاء وصف الجنتين الأوليين بأنهما أكثر اكتمالا من الجنتين اللتين من دونهما، فالجنتان الأوليان فيهما عينان تجريان، وفيهما فاكهة نكرة دون تحديد، وفيهما فرش مبطنة مع اقتراب الجنى من ساكنيها

[1] البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، سنة 1422هـ، باب صفة أبواب الجنة، حديث رقم 3257 ، ج4 ص119: 120

يقتطفون منها وهم جلوس لدنوه منهم، أما الحور العين فهن قاصرات الطرف بطبيعتهن، وكما قالت الآيات كأنهن الياقوت والمرجان في جمالهن وتحفظهن... لكن صورة الجنتين اللتين دون ذلك كانت أقل؛ لأنهما دونهما، فكانت العينان نضاختان/ ماؤهما متدفق في مكانه، وجريان الماء بعد تدفقه أفضل وأعلى رتبة كما ورد في كتب التفسير، والفاكهة التي فيها غير شاملة، فقد عددت الآية فاكهة ونخل ورمان، ولكن في الجنتين الأعلى جاءت من كل فاكهة، فكل مع عدم التحديد فيه شمول وكمال، أما عن صورة المتكأ فقد وصف بالحسن والجمال العبقري، لكن لم تصف الآية قرب الجنى منهم وهم على ذلك المتكأ، أما صورة الحور العين فقد كنَّ مقصورات بتوجيه وأمر، ولم يوصفن بالوصف الأخير الذي ورد سابقاً بأنهن مثل الياقوت والمرجان، وعلى العموم فكل أوصاف الجنتين الأوليين اتسمت بالعموم وعدم التحديد بغرض الكمال، أما الجنتين اللتين من دونهما فقد اتصفتا بالكمال إلا أن ذلك كان مرتبطاً بحدود، وغير مطلق كما في الجنتين السابقتين. وهذا يدل على أن الآيات ليس فيها أي نوع من التكرير، ولكنه وصف لجنتين في المرتبة الأعلى، ثم وصف آخر لجنتين من دون الجنتين السابقتين، وهذا الأمر دقيق لا يتنبه له إلا المدقق الفاهم ومن له معرفة باللغة العربية وبنياتها، ولذلك عندما ترجم المستشرق الفرنسي ريجي بلاشير القرآن الكريم أو معانيه إلى الفرنسية، لم يدرك الفوارق بين المجموعتين من الآيات السابقة (وصف الجنتين، ووصف الجنتين اللتين من دونهما بعدهما) فظن المستشرق بلاشير أن هناك تكرار للآيات، واقترح حذف مجموعة منهما على اعتبار أن المجموعة الثانية تفي بالغرض، ولم ندرِ هل هذا من سوء الفهم أم هو زيغ في قلبه يتتبع به المتشابه من القرآن للطعن والإنكار، وقد قال تعالى في كتابه الكريم {... فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ...}[1].

لكن في تتبعنا لوجوه التثنية في السورة، نرى أن هذا التكرار مظهر من مظاهر التثنية أو ناتج عن مبدأ التثنية بصورة أخرى من صور التعبير، ولا تتضام الجنتان والجنتان من قوله تعالى: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} وقوله تعالى: {وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ} إلا كما تتضام الجنتان والعينان والمشرقان والمغربان... ويتأكد أن التثنية قابلة للتكرير على صور شتى، لا تستنفد عند استعمال لغوي بعينه[2]، فهذه إحالة إشارية صغرى تحيل الدلالة والمعنى وبنية النص إلى ما ورد في النص الأكبر/ السورة بكاملها، فما جاء من انقسام وتواز بين الجنتين في هذه الصورة الصغرى، يحيل إلى ما ورد في النص ويشكل لبنة من لبنات بنائه، وهذا ما سنراه في الوجه الثالث.

[1] آل عمران، الآية7

[2] انظر: السيد إبراهيم، الأسلوبية، ص116– 117

الوجه الثالث: انقسام السورة كلها إلى قسمين ظاهرين، القسم الأول منها يبدأ من أول السورة وينتهي عند الآية (36) وفيه عُلِّق الكلام على خلق الإنسان وخلق الجان وخلق السماوات والأرض وغير ذلك مما يتعلق بالنشأة الأولى، أما القسم الثاني الذي بدأ من الآية (37) إلى آخر السورة فقد تعلَّق الكلام فيه على النشأة الثانية وما يتصل بها من حديث الجنة والنار[1]، ليتأكد قيام السورة على عموم التثنية سواء في المعاني والدلالة، وكذلك البنيات العامة والجزئية لكل آيات السورة.

ومما يلفت النظر في انقسام السورة إلى قسمين ما يلحظه القارئ من وجود ترابط جميل بين القسمين، إذ انتهى القسم الأول بالحديث عن إرسال شواظ من نار ونحاس على الجن والإنس في محاولاتهما اختراق أقطار السماوات والأرض، لتأتي بعدها الآية الأولى من القسم الثاني لتتحدث عن انشقاق السماء يوم القيامة، في ترابط دلالي واضح (يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ (35) فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (36) فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ(37) وفي العموم ففي "السياق الذي دارت فيه كل صور التعبير على مبدأ التثنية انطلقت فكرة البعث، فلم يكن ظهورها غريباً، بل ظهرت ظهوراً جبرياً أدَّاه التفكير اللغوي نفسه، فكما قيل الليل والنهار، والسماء والأرض، والجن والإنس، كذلك قيل: الأولى والآخرة، والحياة الأولى والحياة الثانية، والنشأة الأولى والنشأة الثانية، وصح جمعها في الدارين والحياتين والنشأتين، على ما صح عليه الميكانزم اللغوي للمثنى على ما تقدم ذكره"[2]، ويبدو أن توالى بنية السورة بهذه التلقائية في عملية انقسام السورة بين الحياة الأولى والآخرة بطريقة لا يشعر بها إلا القارئ المدقق، قُصد به – والله أعلم - خلق نظام بنائي يوحي بالاستجابة التلقائية لنظام الله المقدر في الانتقال من الدنيا إلى الآخرة، فكم سلس هذا الانتقال في السورة، وكم سلس ومتوقع انتقال الحياة إلى الموت ثم البعث والحساب، ويبدو أيضاً أن التزام النسق التقابلي المهيمن له أثره الفاعل في لفت انتباه المتلقي إلى النهاية الحتمية للإنسان؛ "ولذلك قامت الفلسفة القرآنية على أن الحياة الدنيا إنما يشهد بوجودها وجود الحياة الآخرة، فالتسليم بإحداهما ينبعث عنه ضرورة التسليم بالأخرى، ولما كان الأمر كذلك وردت الآيات القرآنية بنفي العقل عمن ينكر النشأة الثانية، ومن ذلك قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ}[3]، فوجود الحياة الثانية ثابت على المبدأ الذي استقام عليه أصل الوجود، وكان هذا المبدأ هو المعنى الذي ترتب عليه كذلك قيام فكرة الجزاء، ومنه مناظرة الإحسان بالإحسان في قوله تعالى في السورة: {هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ(60)} وينبغي أن

[1] انظر: السابق نفسه، ص118

[2] السابق نفسه، ص117: 118

[3] الواقعة، الآية62

نفهم العلاقة بين الجنتين والجنتين، والعينين والعينين، وغير ذلك على أنها كالعلاقة بين الإحسان والإحسان، من نمط العلاقة الجبرية التي تقوم على مبدأ التثنية كالعلاقة بين الخلق الأول والخلق الثاني"[1] في تقسيم منطقي رياضي علمي، إذا أشرنا معه إلى أن الحياة الأولى رمزها (أ) وأن الحياة الآخرة رمزها (ب) يكون فحوى المعادلة المنطقية إن وجود (أ) يتحتم معه وجود (ب).

وقريب من إشكالية المفسرين وعلماء اللغة واختلاف مذاهبهم في آية الجنتين {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} خلافهم في العدول الذي جاء في قوله تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ...} وقوله تعالى: {فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ(70)} فالعدول في قوله تعالى (فيهن) في الآيتين، فمن المفترض أن الضمير (فيهن) يعود على الجنتين، وإذا كان ذلك كذلك فمن الطبيعي أن نقول: (فيهما) ولكن الآيتين تركتا ضمير التثنية إلى ضمير الجمع، ونتيجة لذلك أخذ المفسرون في البحث عن تفسير مناسب لذلك العدول فقالوا كلاماً كثيراً ومتنوعاً يمكن الرجوع إليه في مظانه، ولكن ما ارتضيته هنا هو قول الزحيلي: "ويلاحظ أنه سبحانه قال في الموضعين عند ذكر الحور: فِيهِنَّ وفي سائر المواضع: فِيهِما والسرّ في ذلك الإشارة إلى أن لكل حورية مسكنا على حدة، متباعدا عن مسكن الأخرى، متسعا يليق بالحال، وهذا ألذ وأمتع وأهنأ للرجل الواحد عند تعدد النساء، فيحصل هناك متنزهات كثيرة، كل منها جنة، وكأن في ضمير الجمع إشارة لذلك. أما العيون والفواكه فلا حاجة فيها لهذا الاستقلال، فاكتفى فيها بعود الضمير إلى الجنتين فقط"[2]، وفي تفسير الشيخ الشعراوي أوّلَ ذلك بقوله: "ولك أنْ تتساءل: الحديث هنا عن الجنتين، فلماذا عدل السياق عن (فيهما) إلى (فيهن) في هذه النعمة بالذات؟ قالوا: لأن نعيم الجنة مشترك، يصح أنْ يشترك فيه الجميع إلا في نعمة الحور العين، فلها خصوصيتها، فكأن الحق تبارك وتعالى يحترم مشاعر الغَيْرة عند الرجال، ففي هذه المسألة يكون لكل منها جنته الخاصة التي لا يشاركه فيها أحد؛ لذلك «لما رأى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمِ الجنة رأى فيها قصراً فابتعد عنه، فلما سُئِل عن ذلك صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمِ قال: إنه لعمر، وأنا أعرف غَيْرة عمر"[3]، وثمة تأويل لغوي قريب من بنية البحث يقول فيه صاحبه: إن الله تعالى "قد خص ضمير النسوة (هن) بالذكر لتحقيق غاية موسيقية تأثيرية من خلال

[1] السيد إبراهيم، الأسلوبية، ص118: 119

[2] وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (دمشق – دار الفكر المعاصر، الطبعة الثانية، سنة 1418 هـ) ج27 ص235

[3] الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ)، تفسير الشعراوي – الخواطر (مصر، مطابع أخبار اليوم، سنة 1997م) ج15 ص9202

صوت النون المدغمة الذي ينسجم ونهايات الآيات في سورة الرحمن"[1]، وهذا ربما فيه توافق مع ما يذهب إليه البحث في استعمال السورة لكلمات منتهية بالألف والنون لتناسب صيغة التثنية بالحرفين ذاتهما في أكثر آيات السورة.

- 5 -

القرآن الكريم في بنيته يتخير الأسلوب الأمثل للفكرة، ويختار معها فواصل الآيات المناسبة المتوافقة مع بناء السورة بالكامل؛ لذلك وجدنا في بعض فواصل سورة الرحمن كلمات تنتهي بنيتها بألف ونون وهي بعيدة عن التثنية، نجد هذا بداية من أول كلمة في السورة {الرَّحْمَنُ}(1) /(الرحمان)، وبعدها مباشرة: {عَلَّمَ الْقُرْآنَ(2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ(3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ(4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ(5)} ... وهكذا بقية السورة جاءت فيها كلمات كثيرة منتهية بالألف والنون وهي بعيدة عن التثنية لتتناسب مع بنية السورة القائمة كلها أو جُلها على التثنية، وقد أول أحد الباحثين العلة في قيام الآيات على صوتي الألف والنون (ان) بأن اختيار هذين الصوتين يتلاءم ومقام ذكر الجنان، فهما من جانب يعملان على جذب ذهن المتلقي للاندماج مع النص القرآني والتغني بجمال وروعة الجنان، ومن جانب آخر يتلاءمان ورفعة الجنان وعلو شأنها، فالصائت الطويل الألف(ا) يعلن عن المسافة الزمنية والمكانية الممتدة بين واقعنا الأرضي والجنان السماوية، وصوت النون (ن) الصامت يعلن بوضوح كذلك عن علو مرتبة الجنان فهو صوت أنفي يخرج من مخرج يرتفع عن مخارج الأصوات الأخرى في العربية[2].

كما أنّ التغاير في مبنى الفاصلة القرآنية من خواص النظم القرآني، وتأتي هذه الظاهرة تنشيطاً للسامع أو المرتل للقرآن الكريم؛ ذلك مع ملاءمة المعنى والاتساق معه، ليس لمجرد الزينة، فمن خصائص الفاصلة القرآنية أنها تسهم في تحقيق التماسك النصي، كما تسهم في تحقيق الاستمرارية، وإذا تعددت الفواصل كانت في الغالب متقاربة في مخارجها وفي صفات الحروف التي قامت عليها، فإذا نظرت في الفاصلة القرآنية في سورة الرحمن تجدها قائمة على حرفي (ان) وهذا في الغالب، ولكن يمكن خروج الفاصلة عن ذلك إلى غيره، فنجد الألف والميم في عدد محدود من الآيات هي قوله تعالى من السورة: {وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ(10) فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ(11) ... وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ(24) ... وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(27)... يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ(41) ... حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي

[1] عبير نجار، الاختيار المعجمي لألفاظ الجنة في سورة الرحمن قراءة لسانية اجتماعية، (الأردن، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، العلوم الإنسانية، مجلد 25 /8 سنة 2011م) ص2005

[2] عبير نجار، الاختيار المعجمي، ص2005

الْخِيَامِ(72)... تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(78) } ربما لأن مخرج الميم قريب من مخرج النون. وجاءت آية واحدة فقط منتهية بالياء والنون وهي قوله تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ(17)} وآيتين انتهتا بالألف والراء وهما قوله تعالى: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ(15)} وانتهت آية واحدة بحرفي الواو والنون، هي قوله تعالى: {هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ(43)} فجاءت الواو والنون، في الفاصلة الأخيرة وهي علامة الجمع؛ ربما لتكون جهنم مجمع المجرمين الخارجين على طاعة الله تعالى من الإنس والجن جميعاً، وربما يلاحظ القارئ أيضاً اختلاف الفاصلة عند تناول الآيات خلق الإنس والجن {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ(14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ(15)} فصوت الراء المسبوق بألف المد مغاير لصوت فواصل آيات السورة كلها، فربما يرجع هذا إلى نوع من الخصوصية في خلق الله تعالى للإنس والجن، وتكرير عملية الخلق بتكرير الصوت في نطق الراء.

إذن الصوت المهيمن على الفاصلة في سورة الرحمن هو صوت (الألف والنون) إذ هو الغالب على فواصل السورة كلها، ولم تخرج عنه إلا هذه الفواصل الإحدى عشرة، منها سبع فواصل بحرفي الألف والميم؛ لأن حرف الميم كما ذكرت هو الحرف الأقرب لحرف النون؛ لتقارب مخرجهما وصفاتهما، فالميم صوته مجهور ومن حيث صفاته، هو حرف أنفي من حيث مخرجه، وهو بذلك يشارك حرف النون في الجهر والغنة، فهما معاً من الأصوات الأنفية، ولعل ذلك التقارب الصوتي هو الذي أتاح لحرف الميم أن ينوب عن حرف النون في سبعة مواضع من فواصل السورة المباركة، على أن هذا التقارب قد تنبه إليه علماء العربية القدماء، فأطلقوا على هذا النوع من الفواصل اسم الفواصل ذات الحروف المتقاربة، ويعنون تقاربها في المخرج أو في بعض الصفات كما ذكرنا. وثمة فاصلة واحدة بحرفي الياء والنون (ين) وفاصلتان بحرفي الألف والراء (ار) ذلك من إجمالي عدد فواصل/آيات السورة الثمانية والسبعين، فإن كانت فاصلة (ام) وفاصلة (ين) لا تبتعد كثيراً عن الفاصلة الرئيسة في السورة، فلعل مشاركة حرف الراء دون غيره في فاصلتين من فواصل السورة، يرجع إلى صفات الحرف القائمة على التكرير، وهي صفة متناسبة مع دلالة الآيتين اللتين تناولتا خلق الإنسان وخلق الجان، {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ (15)} بأن هذا الخلق مكرور حتى يوم القيامة، هو نفسه الخلق الأول لآبائنا، وربما يرجع أيضاً إلى ما ينماز به حرف الراء من وضوح صوتي يتناسب مع موضعه.

وإذا رجعنا إلى النسبة الإحصائية للفاصلة القرآنية في سورة الرحمن فإن ثبات فواصل السورة على حرفي (ان) وهيمنته على عدد سبع وستين فاصلة من فواصل سورة الرحمن، ربما يعني اتساق السورة في موضوعها ومضمونها وبنيتها وما تحمله من دلالات؛ فكله يعضد فكرة التثنية التي قامت عليها دلالة السورة

كلها، وهذا يخلق نوعاً من الترابط بين آيات السورة وبين موضوعها الموزع بين الإنس والجن، والدنيا والآخرة؛ لتتناسب بنية الفاصلة على التثنية مع السيرورة الموضوعية للسورة نفسها في حديث الدنيا والآخرة، وحديث الجنتين والثقلين والمشرقين والمغربين.

والجميل في فواصل سورة الرحمن أن الله الواحد الأحد سبحانه وتعالى عندما تحدث عن ذاته حديثاً مباشراً لم تأت الألف والنون الدالة على التثنية في الفاصلة، وإنما جاءت بدلاً عنها الألف والميم أو الهمزة والنون المنونة {وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(27)... كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ(29) رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(78)} ومن ثم تكون الفاصلة بهذه البنية، هي الخيط الرابط بين موضوع النص ودلالته وكل ما فيه من ثنائيات.

- 6 –

أما عن تكرار قوله تعالى: {فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} فقبل أن نتناول عدد مرات تكرار الآية في السورة، لابد أن ندرك أن للتكرار قيمة فنية وجمالية عالية في الدراسات النقدية الحديثة والمعاصرة؛ "فقاعدة التكرار الخطابية تتطلب الاستمرارية في الكلام، بحيث يتواصل الحديث عن الشيء نفسه بالمحافظة على الوصف الأول أو بتغيير ذلك الوصف، ويتقدم التكرار لتوكيد الحجة والإيضاح"[1]، وفي سورة الرحمن جاءت الآية {فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} مكرورة إحدى وثلاثين مرة، وهذا التكرار لم يشهده الخطاب القرآني من قبل السورة ولا من بعدها؛ حيث لم يحدث أنْ تكررت آية واحدة بعينها في القرآن الكريم بهذا العدد، وقد أحسن الصاوي في توضيحه وتقسيمه لهذه الظاهرة القرآنية في سورة الرحمن، فقال: "ثمانية منها عقب آيات تعدد النعم، ثم سبعة عقب ذكر النار وشدائدها على عدّة أبوابها لأن التخلص منها نعمة، ثم ثمانية عقب وصف الجنتين الأوليين كعدة أبوابها، ثم ثمانية عقب وصف الجنتين اللتين دون الجنتين الأوليين"[2]، وللكرماني كلام قريب من هذا حيث قال عن عدد تكرار آية الآلاء: "ثمانية منها ذكرت عقيب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه ومبدأ الخلق ومعادهم، ثم سبعة منها عقيب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم، وحَسن ذكر الآلاء عقيبها لأن في صرفها ودفعها نعماً توازي النعم المذكورة أو لأنها حلّت بالأعداء وذلك يعد أكبر النعماء، وبعد هذه السبعة ثمانية في وصف الجنان وأهلها على عدد أبواب الجنة، وثمانية أخرى

[1] نعمان بو قرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب – دراسة معجمية (عمان، جدار للكتاب العالمي وعالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة 1429هـ 2009م) ص100

[2] الصاوي، أحمد بن محمد المالكي، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، (مصر، مصطفى البابي الحلبي، 1360هـ – 1941م) ج4ص146

بعدها للجنتين اللتين دونهما فمن اعتقد الثمانية الأولى وعمل بموجبها استحق كلتا الثمانيتين من الله ووقاه السبعة السابقة"[1]، وربما يدخل هذا التقسيم ضمن الإعجاز العددي للقرآن الكريم؛ فشكر النعم له تعلق بالجنة وأبوابها الثمانية، والتحذير من النار له تعلق بعدد أبوابها السبعة، وذكر الجنتين الأوليين له تعلق بعدد أبوابها الثمانية، ومثل ذلك ذكر الجنتين اللتين من دونهما.

ولتكرار الآية إسهام عظيم في الترابط النسقي للمعنى والدلالة؛ وقد تمثَّل ذلك في الإيقاع الموحد الذي اقتضته طريقة توزيع الآية في قلب السورة، ووروودها كفاصلة كبرى طوية في أكثر آياتها، مع بقاء صوت التثنية عماداً للمنحى الإيقاعي لكلية السورة، في بنيتها ونسيج كلماتها وفواصلها الصغرى التي تتردد أصواتها الدالة على التثنية في أكثر الآيات.

وقد راقتني فكرة للدكتور مصطفى محمود عن التكرار في القرآن الكريم، فمصطفى محمود يرى القرآن شبيهاً بالكائن الحي، وأن الكلمة فيه شبيهة بالخلية، "فالخلايا تتكرر وتتشابه في الكائن الحي، ومع ذلك فهي لا تتكرر أبداً.. وإنما تتنوع وتختلف.. وكذلك الكلمة القرآنية فإننا نراها تتكرر في السياق القرآني ربما مئات المرات، ثم نكتشف أنها لا تتكرر أبداً برغم ذلك، إذ هي في كل مرة تحمل مشهداً جديداً... وما يحدث أنها تخرج بنا من الإجمال إلى التفصيل... وأنها تتفرع تفرعاً عضوياً... والكلمة القرآنية تشبه كائناً حيّاً أو خلية جنينية حية، فهي تتفرع عبر التكرار الظاهر لتعرض مشاهد يكمل بعضها بعضاً تماماً كما تنقسم خلية الجنين لتعطي خلايا الرئتين والقلب والكبد والأحشاء والعظام والجهاز العصبي إلى أن تعطينا في النهاية إنساناً كاملاً... وقد جاء كل هذا التنوع من خلايا متشابهة... فذلك هو التفصيل الذي كان مجملاً في الخلية الأولى للجين"[2] ويمكن أن ينطبق ذلك كله على تكرير آية الآلاء، فآية الآلاء ليست هي نفسها التي جاءت مكرورة (31 مرة) ففي كل مرة من هذه المرات تتغير دلالة المعنى ودلالة النعمة مع تغير النعمة التي تشير إليها الآية، ففي كل مرة تحمل مشهداً جديداً من مشاهد النعم المتعددة، وكأن كل مرة منها مخصصة بالنعمة التي وردت معها دون غيرها من النعم الأخرى التي في السورة.

[1] الكرماني، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (المتوفى: نحو 505هـ)، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا (القاهرة، دار الاعتصام، الطبعة الثانية، سنة 1396هـ) ص198

[2] مصطفى محمود، القرآن كائن حي، (مصر، دار المعارف، سنة 1993م) ص4-5

على أن هذه الثنائيات كلها تخلق نوعاً من التضام المعجمي[1] والدلالي بين آيات السورة وكلماتها، والتضام من أهم وسائل الترابط اللفظي في النصوص الأدبية، ولو بحثنا في التضام كما يرسمه النقاد وعلماء اللغة نجده ماثلاً في الازدواج بين الكلمات المتلازمة في سياق النص، أو مجموعة من الكلمات المتشابهة في جانب معين، كانتمائها إلى حقل دلالي واحد، (مثل المرض والطبيب) أو أن تكون مرتبطة بعلاقة تضاد (كالموت والحياة) و(الإيمان والكفر) أو أن تكون منتمية إلى بعضها بعضاً بعلاقة الكلية والجزئية، أو ينبني فهم بعضها على فهم بعضها الآخر، وقد جاء التضام في سورة الرحمن مؤسساً على تلازم الثنائيات اللفظية المتجاورة في بنية آياتها كما ذكرنا سابقاً ونذكر لاحقاً.

وبإعادة النظر في النقاط السابقة من الدراسة يتضح أن سورة الرحمن قد بنيت على علاقة التضام بين الثنائيات سواء اللفظية المتمثلة في علائق كثيرة أبرزها (الجن والإنس – النجم والشجر – المشرقين والمغربين...) أو ثنائيات الجمل المتمثلة في بنية المقابلة، أو حتى الثنائية العامة الكبرى التي انقسمت عليها السورة بين الحياة الأولى والحياة الآخرة، أو الثنائية الصغرى في آخر السورة في وصف الجنتين والجنتين، لتمثل تلك الثنائيات نظاماً هندسياً رائعاً في بنية السورة، نتج عنه نسق بنائي ممتد هيمن على السورة أو هيمنت عليه السورة من أولها إلى آخرها، ومن ثم غدا رابطاً يشد عُرى الخطاب نحوه، بوصفه بؤرة السورة وأساس بنائها الهندسي في تراتب منطقي بدأ مع نِعَم الدنيا بخلق الإنسان وتعليمه القرآن (عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) وختم حديث الدنيا بالفناء (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ(27)، ليبدأ حديث الآخرة بقوله تعالى: (سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ (31) وهذا وعيد بيوم الحساب، وختم حديث الآخرة بخاتمة غير بعيدة عن سابقتها في ختام الحديث عن الدنيا فقال تعالى: (تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (78) وهي قريبة جداً من قوله تعالى : (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (27) وهي بنية معجزة تدخل في دلالة الثنائية بتكرار اسم الله تعالى (رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ - رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ).

خاتمة:

يبقى ما توصل إليه البحث قابلًا للردّ والقبول، فإمكانات سوء الفهم باقية في أعمال البشر، ولكني أرجو أن أكون قد بلغت بعض الهدف، فغاية القصد قراءة جديدة في سورة الرحمن، وقد كشفت القراءة قيام السورة على التقسيمات الثنائية والتكرير المُعجِز، وقد ارتبط كله بوسائل ترابط النص وبناء انسجامه، فانقسام السورة المضموني إلى ثنائيات متنوعة في عرضها لنِعَم الله وفضله، والحديث عن الدنيا والآخرة،

[1] لمعرفة المزيد عن التضام وطرق بنائه في النص القرآني انظر: خالد توفيق مزعل، الأنساق الأسلوبية المهيمنة على السورة القرآنية، ص130: 133

ووصفها الدقيق للجنتين، ثم قيامها على بنيات التكرير، وبنية تكرير اللازمة {فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ} كلها تسهم في بناء شبكة من العلاقات المادية والمعنوية الخفية يقود بعضها بعضاً بصورة تضمن تلاحم أجزاء النص وتحقق انسجامه ليدرك المتلقي الواعي عناصر النص المحورية ومواضع الانسجام والترابط الكامنة فيه.

ثبت المصادروالمراجع:

1. ابن منظور، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، لسان العرب (بيروت، لبنان: دار صادر، الطبعة الأولى).
2. الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: علي عبد الباري عطية، (بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة 1415 هـ)
3. البغدادي، عبد القادر بن عمر البغدادي، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون (مصر - مكتبة الخانجي، الطبعة الرابعة، سنة 1418 هـ - 1997 م)
4. البندري بنت عبد العزيز العجلان، الأسماء المختومة بألف ونون زائدتين لغير إعراب في القرآن الكريم دراسة تصريفية (مصر، مجلة كلية الآداب جامعة حلوان، ع26 يوليو 2009م)
5. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي، شعب الإيمان، تحقيق : محمد السعيد بسيوني زغلول (بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، سنة 1410هـ)
6. الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، الكشف والبيان (بيروت – لبنان، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، سنة 1422 هـ - 2002 م)
7. خالد توفيق مزعل، الأنساق الأسلوبية المهيمنة على السورة القرآنية دراسة تطبيقية على السور المكية، رسالة دكتوراه مخطوطة (العراق، جامعة الكوفة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، سنة 1433هـ: 2012م)
8. السيد إبراهيم، الأسلوبية والظاهرة الشعرية مدخل إلى البحث في ضرورة الشعر (مصر – مركز الحضارة العربية، الطبعة العربية الرابعة، سنة 2007م)
9. سيد قطب، في ظلال القرآن (كتاب إلكتروني – المكتبة الشاملة)

10. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي(المتوفى: 911هـ)، الدر المنثور (بيروت – دار الفكر)
11. الشعراوي، محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ)، تفسير الشعراوي – الخواطر (مصر، مطابع أخبار اليوم، سنة 1997م)
12. الصاوي، أحمد بن محمد المالكي، حاشية الصاوي على تفسير الجلالين، (مصر، مصطفى البابي الحلبي، 1360هـ - 1941م)
13. الطاهر بن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ)، التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» (تونس، الدار التونسية للنشر، سنة 1984 هـ)
14. الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: 310هـ) جامع البيان في تأويل القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000م)
15. عبير نجار، الاختيار المعجمي لألفاظ الجنة في سورة الرحمن قراءة لسانية اجتماعية، (الأردن، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، العلوم الإنسانية، مجلد 25 /8 سنة 2011م)
16. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، (مصر، دار الكتب المصرية، الطبعة الثانية، سنة 1384هـ - 1964م)
17. الكرماني، محمود بن حمزة بن نصر، أبو القاسم برهان الدين الكرماني، ويعرف بتاج القراء (المتوفى: نحو 505هـ)، أسرار التكرار في القرآن المسمى البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا (القاهرة، دار الاعتصام، الطبعة الثانية، سنة 1396هـ)
18. مصطفى محمود، القرآن كائن حي، (مصر، دار المعارف، سنة 1993م)
19. مهلهل بن ربيعة، ديوان مهلهل بن ربيعة، شرح وتقديم: طلال حرب (الدار العالمية دت)
20. نعمان بو قرة، المصطلحات الأساسية في لسانيات النص وتحليل الخطاب – دراسة معجمية (عمان، جدار للكتاب العالمي وعالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، سنة 1429هـ 2009م)

21. الهرري، محمد الأمين بن عبد الله الأرمي العلوي الهرري الشافعي، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، مراجعة: الدكتور هاشم محمد علي بن حسين مهدي (بيروت – لبنان، دار طوق النجاة، الطبعة: الأولى، سنة 1421 هـ - 2001 م)

22. وهبة بن مصطفى الزحيلي، التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج (دمشق - دار الفكر المعاصر، الطبعة الثانية، سنة 1418 هـ)

23. البخاري، أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، الطبعة الأولى، سنة 1422هـ